كان حتما أن ينشأ عن هذا التحوير انقلاب فى فكرة الاخلاق . فقد كانت أكاليل المجد والفخار لا تعرف موضعا غير هامة الفرسان المقاتلين ، فأما هؤلاء الذين يقضون نهارهم فى الزراعة والصناعة فعيد أرقاء حقت عليهم الذلة والهوان ، ولكن وجهة النظر أخذت تتطور منذ حلت الصناعة ورسخت قدمها ، لانها تعتمد كما تقدمنا على القوة العقلية ، فأضحى العمل أشرف ما يمارسه الانسان . لأنه عماد المجتمع وسنده ... ولما كان هذا العمل لا ينمو ولا يستقيم الا تحت ظل العدالة ، وهذه بدورها لا تورق أو تزدهر الا فى جو من الحرية : كانت هذه الحرية اول واجب فى عنق الدولة ، وقد عرف سبنسر العدالة بأن : « كل إنسان حر فى ان يفعل مايشاء ، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع حرية إنسان آخر له ماله من حقوق » . ولا يستقيم هذا النص مع نزعة الحرب ، لانها تعبد سلطان القوة وتفرض الطاعة العمياء ، ولكنه شرط أساسى لنجاح الصناعة لانها تعتمد على السلام والحرية فى الرأى والابتكار .

تلك هى حقوق الانسان الاساسية عند سبنسر . حق الحياة وحق الحرية ، فأما شكل الحكومة فلا يقيم له وزنا ، فلتكن ملكية مطلقة أو دستورية أو ماشئت من نظم ، فالناس لها ما دمنا نتمتع بالحرية والحياة ؟ وفى هذا يسخر سبنسر من النساء اللاتى يلححن فى طلب الحقوق السياسية ، لانها فى رأيه وهم باطل لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فضلا عن أنه يتوجس من المرأة خيفة ان هى وثبت الى مقاعد النيابة والحكم ، اذ يخشى ان تدفعها غريزة الايثار الى تقوية الضعيف الذى يجب أن يترك للطبيعة تسحقه : فلا تذر من الاحياء غير الاقوياء ؛ نعم يجب أن تتحكم الأنانية وان تظل أساسا لاعمالنا بحيث لا تلين لعاطفة الايثار ، فهى أسبق منه الى الوجود ، وهى أصلح للحياة والبقاء .... وهل الايثار الا أثرة فى لبه وصميمه ! أليست الابوة حبا صريحا للنفس ؟ والوطنية ما هى ؟ ألا تراها أثرة مجسمة ؟ فأنت لا تنتصر لهذه البقعة من الارض الا لانك تعيش بين أرجائها !

وخلاصة الرأى عند سبنسر أن المثل الاعلى للاخلاق هو مزيج متزن بين الاثرة والايثار — الايثار الذى يشبع الانانية ويغذوها .

زكى نجيب محمود

فى تاريخ الادب العربى المصرى

ابن قلاقس

٥٣٢ — ٥٦٧ هـ (١١٣٨ — ١١٧٢ م)

— ١ —

فى ثغر الاسكندرية ، مهبط الوداع واللقاء . حيث تجلب السفن قوما وتذهب بآخرين ، وتحمل أناسا إلى أوطانهم ، بينما تذهب بغيرهم إلى بلاد غير بلادهم وآل غير آلهم ، وحيث البحر الأبيض يحمل عباب السفن ، مهتدية بمنار الثغر ، فتحط إليه أو ترحل عنه ، وفى رابع ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة ولد لعبد الله بن مخلوف بن على ولد سماه نصر الله ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه الناس بعد ذلك بالقاضى الاعز ، وشهر فى كتب الادب بابن قلاقس ، وأرجح ماتراه سببا لكنيته الاخيرة أن أحد الاجداد فى عمود نسبه يسمى بقلاقس ، فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه ، (وقلاقس بقافين . الاولى مفتوحة والثانية مكسورة جمع قلقاس ، وهو معروف) ولسنا ندرى السبب الذى من أجله سمى جده بهذا الاسم .

ولد هذا الطفل الذى كان على مايظهر نحيفا ضئيل الجسم ، وظلت صفة النحافة ملازمة له ، لم تبرحه طوال حياته حتى قال حينما كبر يحدثنا أن ضآلة الجسم لا تحول بينه وبين العلا :

جوهر المرء نفسه وبها الفض ل ، وما غير ذاك فهو فضول
والصغير الحقير يسمو به السـ ـير فيغنو له الكبير الجليـل
فرزن البيدق التنقل حتى انـ ـحط عنه فى قيمة الدست فيل

ويروى بعض الرواة أنه لم تكن له لحية ، ولكن شعره يحدثنا أنه كان خفيف العارضين حيث يقول :

لاتغرنك اللحى من أناس درجوا كالحمير تحت المخالى
رثة خف عارضاى فانى لا أبالى بكل واف السبال

يلبس على رأسه عمامة كالتاج ، وذلك كل ما تستطيع أن تصل إليه إذا أردت أن تعرف شيئا عن خلقته وزيه ، فاذا أردت أن تدرس أسرته وأن تعرف شيئا عن أبيه وأمه فانك غير مهتد إلى ما يشفى غليلك ، اللهم إلا أنه يرجع فى نسبه الاول إلى قبيلة عربية هى قبيلة لخم إن صح مايقوله النسابون عن نسبه .

الحياة العلمية لابن قلاقس حياة يشوبها الغموض ، فلسنا ندرى على وجه اليقين كيف تعلم ، ولا ماذا تعلم ، ولا على يد من تخرج ، وان كنا نعلم انه درس فى الازهر ، وربما يكون قد طالت مدة دراسته حتى صح أن ينسب ويقال له الازهرى ، كما أننا نعلم أنه صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفى وهو أحد الحفاظ الذين رحلوا فى طلب الحديث ، ولقى المشايخ الاعلام ودرس الفقه على مذهب الشافعى ، ثم ألقى عصا التسيار بالاسكندرية ، حيث قصده أهل العلم من البلاد النائية ، ويقال . انه لم يكن فى آخر زمانه مثله ، ولقد بنى الوزير المصرى وزير الظاهر العبيدى له مدرسة بالاسكندرية وكل أمرها اليه ، فقام بأعبائها .

اتصل ابن قلاقس بهذا العالم وانتفع بصحبته كثيراً ، وان شعره الذى مدحه به يدلنا على ما كان بينهما من أواصر المودة وقوة العلاقة ، كان السلفى رجل حديث فلا بد أن يكون ابن قلاقس قد درس عليه الحديث ، وكان رجل فقه ولغة وأدب فلابد أن يكون صاحبنا قد تأثر بفقهه ولغته وأدبه ، وإذا كان الشاعر يهضم دراساته كلها ثم تأبى الا أن يظهر أثرها فى شعره فكذلك كان صاحبنا ؛ فانك ترى فى شعره بعض اصطلاحات علمية تدلنا على دراسته وما تلقاه ، وانصت اليه يقول :

البدر فى العرض الضياء وأنت قد جمعت بجوهر ذاتك الاضواء

ألا يذكرك ذلك باصطلاح المتكلمين حينما يتحدثون عن العرض والجوهر والذات ، ويقول :

وأنت ورثت الاكرمين علاهم وعالت على قوم سواك الموارث

ويقول :

ملك شاعر الحماسة يأبى أن يمل التسهيم والتقسيما

فهو يشير الى الميراث والنزول والتسهيم والتقسيم التى هى من اصطلاحات الفرضيين واستعمالاتهم ، ويقول :

وجدى بنحوك لاعطفا ولابدلا فانظر اليه تجده الكل توكيدا

ويقول :

خفضت بها الاشعار حتى كأنها وان رفعتنى الآن من أحرف الجر

ويقول :

وأحسن بالرفع رفع الحديـ ـث واظهاره للجوى المضمر

فهو فى كل هـذه الابيات يشير الى قواعد النحو من عطف وبدل وتوكيد وخفض ورفع وحروف جر وإظهار وإضمار ، وهى كلها اصطلاحات نحوية تلوكها ألسنة النحاة ، كما كان فى البيت الاخير يحدثنا عن رفع الحديث الذى هو من مصطلحات المحدثين كما قال :

لوارث الحمد يرويه ويسنده الى مناسب أجداد وآباء

إذ هو يشير الى الرواية والاسناد اللذين يجريان على ألسنة المحدثين . ويقول :

حيث الدماء عقار يستحث على ماشئت من رمل للخيل أوهزج

فى رمل وهزج تورية ببحرى الرمل والهزج اللذين يعرفهما علم العروض ويقول :

وأراك تعرف الجمال بوجهه فانظر إلى ألف العذار ولامه

فهو فى ذلك يلمح بعلم المنطق .

تلك هى العلوم التى نستطيع استنباط أنه درسها من شعره ، وإذا شئت أن تجملها قلت إنه درس الدين وعلومه واللغة العربية وعلومها كما أنه قد أخذ بحظ كبير من دراسة أدب الشعراء الغابرين وحفظ الكثير من أقوالهم ، يدلنا على ذلك معارضته لهم فى أشعارهم وقصائدهم واقتباسه الكثير من أفكارهم وتعبيراتهم ، وإن شعر شاعرنا ليدلنا حقيقة على اطلاع واسع وثقافة متغذية بأشعار السابقين له : جاهليين وإسلاميين ، وسوف نتحدث بعد عن اقتباسه ومعارضته حينما نحدثك عن شعره . قلنا إنه صحب الحافظ السلفى ، ونقول ، إن التاريخ لم يحفظ من أسماء أساتذته الا هذا الاسم ، وقلنا ان العلاقة التى كانت بينهما متينة العرى وثيقة الصلة تلمسها فى شعره ، وتقرؤها فى المدح الذى يفيض قداسة وحبا ، كما تلمس فيه تلك الدرجة العظيمة التى وصل اليها السلفى ، وتلك المنزلة السامية التى كان يضعه فيها أهل عصره ، وحسبك أن تسمع قوله فيه :

نجم علا نوره فكاد بأن تقبض بالضوء عين من جحده

سائل به من رمته هيبته فمات من خوفه ، وما عمده

ألم تزره كواكب ضمنت رجم شياطين كيدهُ المرده

وأصبح العاضد الامام به فى دولة بالسعود معتضده

وابتسم الثغر عن مفضله بما ارتضى الله جده وددده

خر له الناس ساجدين فلو شئت عددت النجوم فى السجده

وشعره فيه كثير جدا يوجد فى ديوانه ، وكان السلق كثيرا مايثنى عليه ، ويكرمه ، ويقدره حق قدره .

— ٣ —

عاش ابن قلاقس طوال حياته فى عهد الدولة الفاطمية ، تلك الدولة التى جعلت مصر سيدة لامبراطورية ضخمة تمتد من المحيط الأطلسى إلى نهر الفرات ، غير أن شاعرنا كان فى آخر عهودها ، وبعبارة أخرى كان فى عهد ضعفها وانحلال قواها ، إذ لم يكن الأمر والسلطان فيها للخليفة : يصرف الأمور ويدبر الشئون ؛ ولكنهما كانا فى أيدى الوزراء يفعلون ما يفعلون ، ويدعون مايدعون ، ويولون الخلافة من يشاؤون ، فقام التنافس على الوزارة . كل يرجوها لنفسه ويصرف فى سبيل نيلها ماشئت من مال وجند ، مما كان مدعاة لأن توجه مصر قواها إلى نصر بعض بنيها على بعض لا إلى عدو آخر مغير ، ولهذا كان تاريخ الدولة الفاطمية فى آخر عهدها تاريخا للنزاع الذى كان قائما حينذاك بين الوزراء ، ولعل ضعف سلطة الخليفة فى أكثر المدة التى عاشها ابن قلاقس هى التى لم تدعه إلى السعى للاتصال به ، بل هو لم يتصل بأحد من رجال السياسة المصرية المبرزين إلا بشاور الذى تغلب على خصمه رزيك وانتزع منه الوزارة ، ولازال الغالب بحد النصير ويحد المادح ؛ لهذا تسمع ابن قلاقس يقول له :

يا آل شاور أنتمو دون الورى ... للملك كالارواح فى أشباحه
وإلى معاليكم إشارة خرسه ... وإلى أياديكم ثناء فصاحه

ويقول حينما انتصر على بنى رزيك :

بك الاسلام قد لبس الشبابا ... وكان سناه قد ولى فآبا
وهز الملك عطفيه بملك ... تقلد فهمه ، وكفى ، ونابا
وقد لبست به الدنيا حلاها ... جلاها حسنها خودا كعابا
وقالوا : أطول الاملاك باعا ... فقلت : نعم ، وأندادهم جنابا
سلوا عنه بنى رزيك لما ... أفاد الحرب منهم والحرابا
فان جعلوا الظلام لهم مطايا ... فكم جعل النجوم لهم ركابا
ليهن الملك أن أمسى مصونا ... عشيه راح غيرهم مصابا

وكذلك له شعر يحدثنا عما قام بين شاور وشيركوه الذى قدم لمساعدته ثم أبى شاور أن يفى له بما عاهده فاضطر شيركوه إلى الانسحاب من مصر مؤقتا ؛ ويقول فى ذلك ابن قلاقس :

عارض الصفح فى يديك الصفاحا ... ورأى اليأس ان تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذن ... ب بعفو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك الـ ... ـحزم والرأى ان وضعت السلاحا
أى ثغر سما إليه أبو الفتـ ... ـح فلم يبتدر إليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النصـ ... ـر فراحت بها تبارى الرياحا
شاركت شيركوه فى النفس والمال ... وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن ، فاستجيب ، ومايعـ ... ـرف منك الطلاب إلا النجاحا
بعد ماضيق الحسام عليه ... سبلا غودرت لديه فساحا
فليطل بعدها الفخار ، فقد را ... ح طليقا ليضحك حيث راحا

وبغير شاور لم يتصل شاعرنا بسياسى مبرز فى السياسة المصرية اللهم إذا استثنينا القاضى الفاضل الذى توصل بجده ومهارته الى أن يثب على كرسى ديوان الانشاء عوضا عن الموفق بن الجلال الذى كان أستاذا له ، وكان يشغل هذا المنصب قبله ، واذا أنت قرأت شعر ابن قلاقس فى مدح القاضى لمست فيه تأنقا واجتهادا فى استعمال المحسنات اللفظية ، ولا غرو فالقاضى الفاضل زعيم طريقة عرفت به وعرف بها : هى طريقة الجمال والتزيين اللفظى ، فكان من حسن الذوق أن يجتهد مادحه فى السير على نهجه واتباع مذهبه لان فى ذلك إذاعة لطريقة يريد أن يذيعها ، ويقولون : إن أول قصيدة قالها فيه هى التى أولها :

ما ضر ذاك الريم الا يريم ... لو كان يرثى لسليم سليم

ومنها :

من لفظه راح ، وأخلاقه ... روح ، وتلك الدار دار النعيم
فارشف باسماعك من قهوة ... ما أحدثت من ندم للنديم
بلاغة جرت جريرا ، ولم ... تدع خطاما بيد ابن الخطيم
رأى به الديوان ديوانه ... مطرزا باسم شريف وسيم
وقال ياعبد الحميد ادرع ... من بعد هذا اليوم ثوب النعيم
علامة السؤدد معروقة ... جسم نحيف وعلاه جسيم

وله فيه مدح كثير ، وثناء على أخلاقه ، وطريقة إنشائه ، وصاحبنا مع فخره بشعره يقف أمام القاضى الفاضل فيقول له :

أتينا بقرى الأشعا ... ر نهديها إلى المدن
إلى من بحره الزا ... خر لا يعبر بالسفن
إلى من لفظه يط ... رب كاللحن بلا لحن

وهذان العظيمان شاور والقاضى الفاضل أكبر من اتصل بهما شاعرنا فى الديار المصرية .

يتبع

احمد محمد بدوى